مجلة الرائد

العدد : ٢٤٨ الموافق في صفر ١٤٢٥ هجري ٢٠٠٤/٤ ميلادي

عنوان المقال : دينُ العنف والانتقام واستباحة الدماء !!	بقلم : الأستاذ عصام العطار

كتب إليَّ شباب مسلمون يعيشون في الغرب ، لم تساعدهم دراستهم ولا ثقافتهم ولا ظروفهم على معرفة كافية بالإسلام ، وهم يواجهون في محيطهم وبين زملائهم عدداً من الاتهامات الجارحة للإسلام والمسلمين ، فلا يعرفون الحقيقة فيها ، ولا يملكون الردّ عليها

والاتهاماتُ – كما قالوا – تتكاثر ، والمشكلة تتفاقم ، والأعداءُ ينفخون في النار ، والإعلامُ المعادي أو المضلَّل يُضلِّل الناس ، وبعض جهلة المسلمين أو المندسّين على المسلمين ، يقدّمون بجهلهم أو بتواطئهم ، لأعداء الإسلام الحجج والمبرّرات للنيل من الإسلام ..

وهؤلاء الشباب يناشدونني أن أجيب بصراحة ووضوح ، دونَ إمهال ، على الاتهامات المتكررة التالية ، وأن أبين فيها بأمانة ومسؤولية الحقّ من الباطل :

١– الإسلام دين العنف

٢– الإسلام دين الانتقام الأعمى

٣– الإسلام يستبيح دماء الأبرياء حتى من الأطفال والنساء

وسأجيب الإخوة الكرام بسرعة – كما طلبوا – ، وباختصار شديد لا يسمح بغيره الوقت والمجال

(١) الإسلام دين العنف

هل الإسلامُ في ذاته ، كما يتّهمه أعداؤه ، ويُرَوِّج له الإعلامُ المضلِّل أو المضلَّل ، دينُ عُنْفٍ ، أو دينُ العنف بين سائر الأديان كما يقولُ بعضهم هذه الأيام ؟!

ليس هناك من هو أجهل جهلاً ، أو أفدحُ ظلماً مِمَّن يَصِمُ الإسلامَ بالعنف ، أو يربط بينه وبين جَمْهَرَة أتباعه وبين العنف

فالإسلام في نصوصه الخاصة ، وفي تعاليمه العامّة ، وفي مقاصده وقواعده ، وسيرة رسوله ﷺ ، والصالحين المبصرين من خلفائه وأتباعه .. حَرْبٌ صادقةٌ مستمرة على العنف ، ودعوةٌ إلى نبذه والإعراض عنه .

ولكن ما هو العنف وما هو معناه ؟

لو رجعنا إلى معاجم اللغة ، وأقوال بعض الشُّرّاح لوجدنا ما يلي :

« عَنُف به ، وعليه ، يَعْنُف عُنْفاً وعَنافةً : أخذه بشِدَّة وقَسْوَة . وعَنُف به ، وعليه : لامه وعَيَّرَه ، فهو عنيف .

والعُنْفُ : الشدّة والقسوة والمشقة

والعنف : خِلافُ الرِّفْق

والعنف : ضِدّ الرفق

وكلُّ ما في الرفق من الخير – كما يقولُ علماء المسلمين في شروحهم – ففي العنف من الشرّ مثلُه »

وما دام العنف يُعَرَّفُ بأنه ضدُّ الرِّفق ، فلا بدّ لنا أن نَعْرِفَ معنى الرفق ، ليزداد معنى العنف في أذهاننا وضـــوحاً « وبِضدِّها تَتَمَيّزُ الأشياء » .

في معاجم اللغة :

رَفَقَ به ، وَلَهُ ، وعليه ، يَرْفُقُ رِفْقاً ، ومَرْفــقاً : لانَ له جانبُهُ ، وحَسُنَ إليه صَنيعُه

والرفق : لِينُ الجانب ، ولَطافَةُ الفعل ، وحُسْن الصَّنيع

والرفق : خِلافُ العنف

والرفق : ضِدُّ العنف »

الرفق والعنف هما إذَنْ كلمتان متقابلتان متضادَّتان تُعَرَّفُ كلٌّ منهما بمخالفتها ومعارضتها ومناقضتها للأخرى ، فلا سبيل إلى الجمع بينهما

وقد اختار ناسٌ – ليسوا من الإسلاميين – في بلادنا ، وفي مواطن أخرى من العالم ، في مراحل تاريخية سابقة ، مـــا دَعَوْه بـــ « العنف الثّوْريّ » ، وقال قائلُهم مُعَرِّضاً بالموقف الإسلامي :

لا بُورِكَ الرِّفْقُ في حَرْبٍ وفي سَلَمٍ وبورِكَ الْعُنْفُ أخلاقاً ومِنْهاجا

فما هو الخِيارُ الإسلاميّ ؟

الخيار الإسلامي

الخيار الإسلاميّ البين الواضح ، القاطع الحاسم ، هو الرّفق

فما زَيَّن الرّفق ، أو حَبّبَ به ، أو رَغّبَ فيه ، بلفظه أو بمعناه ، أحدٌ كالإسلام

وما قَبَحَّ العنفَ أو كَرَّهَهُ ، أو نَفَّر منه ، بلفظه أو معناه أحدٌ كالإسلام

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي اللَّه عنها أنّ النبي ﷺ قال :

– « إنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ »

وروى مسلم في صحيحه أيضاً عن عائشة رضي اللَّه عنها أنَّ النبيّ ﷺ قال :

– « إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ ، وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ »

وروى البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت : قال رسول اللَّه ﷺ :

– « إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه »

وروى مسلم في صحيحه ، وأبو داود في سُنَنه ، عن جرير بن عبد اللَّه ﷺ قال : سمعت رسول اللَّه يقول :

– « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ »

وكما أوصى الإسلام بالرفق أوصى بالحلم والأناة ، والعقل والحكمة ، والتثبت في الأمور ، وتَرْكِ الانقياد لـــدواعي الغضب :

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ لأَشَجِّ عبدِ قيْس [1] :

(١) هو المنذر بن عائذ .

« إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ »
وليسمح لي القراء بشرح معنى الحلم والأناة ، فقد بَعُدَ كثيرون عن العربية ، وفهمها الدقيق الصحيح :
حَلُمَ يَحْلُمُ حِلْماً : تَأَنَّى ، وسَكَن عِنْدَ غَضَبٍ أو مكروه مع قُدْرَةٍ وقُوّة ، وأضع خطاً واضحاً تحت : « مع قدرة وقوّة »
وحَلُمَ : صَفَح
وحَلُمَ : عَقَل
والْحِلْمُ : الأَنَاة ، وضبطُ النفس ، والصفح »
والحِلْمُ : العقل ، قال تعالى : { أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا ... } [الطور : ٣٢]

أمّا الأناةُ فهي الحِلْمُ والوقارُ والتثبُّت وتركُ العجلة في الأحكام والأفعال ، والرِّفْقُ والتَّرَفُّقُ في معالجة الأمور
وأحبّ أن أرجع قليلاً إلى الوراء ، وأن أزيد في لفت نظر القراء إلى ما سبق في شرح معنى « حَلُمَ » من الإشارة إلى أنّ الحلم لا يكون حِلماً حقيقيّاً إلاّ مع القدرة والقوّة ، حتى لا يقع الخلط بين الْحُلَماء والضعفاء الجبناء الأَذِلاّء ..

كلُّ حِلْمٍ أَتى بِغَيْرِ اقْتدارٍ حُجَّةٌ لاجئٌ إليها اللئامُ [٢]
يُغْضي على الذُّلِّ غُفْراناً لِظالِمِه تَأَنّقَ الذُّلُّ حَتّى صارَ غُفْرانا [٣]

ولا بدّ لي قبل أن أختم الكلام على الإسلام والعنف من أن أنبه إلى هذا الأمر :

كثيرٌ من الناس يخلطون بين القوة والعنف وهما أَمران مختلفان
فقد يكون الرجل أحياناً قويّاً كلَّ القوّة ، وهو مع ذلك سَمْحٌ كلَّ السماحة ، رحيمٌ كلَّ الرحمة رفيقٌ كل الرفق ، كما كان رسول اللّه ﷺ :
{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة : ١٢٨]
{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : ١٠٧]
وقد يكون الرجل أحياناً ضعيفاً كلَّ الضعف ، وهو مع ذلك ممتلئ الصدر بالحقد والشر ، عنيف كلّ العنف إن واتته فرصةٌ للتحكم والتنكيل دون رحمة ولا شفقة ولا وازع من ضمير
القوّة في الإسلام أمرٌ محمود ، والعنف أمرٌ مذموم
القوّة في الإسلام شيءٌ مطلوب ، والعنف شيءٌ منبوذ
القوّة أمر مطلوب محمود ، لأن الضعيف لا يستطيع أن ينتصف لنفسه ، ولا يستطيع أن ينتصف لسواه ، وأن يؤدّي دوره الفعّال في إقامة معالم الحق والعدل في مجتمعه وفي الدنيا كلّها إن استطاع
والقوة المطلوبة المحمودة في نظر الإسلام هي التي تلتزم الحقَّ والعدالةَ والخير ، وتكون في خدمة الحقّ والعدالة والخير ؛ وليست هي القوة التي يَطْغَى بها أربابُها فيدوسون بها الحقّ والعدالة ، فيكونون بها ، وتكون بهم ، بلاءً ووبالاً على الإنسانية والإنسان

(٢) هذا البيت للمتنبي .
(٣) هذا البيت لبدوي الجبل .

(٢) الإسلام دين الانتقام الأعمى

أمّا الانتقام ، فالإسلام أبعد ما يكون عن روح الانتقام ومنطق الانتقام ، فضلاً عن الانتقام الأعمى الذي لا يعرف الضوابط والحدود ، كما رأينا في تصرفات دول عصرية كبرى ، وما نزال نرى في عالمنا البائس هذه الأيام

الإسلام في تعاليمه النظرية ، وفي تطبيقاته العملية كما جسّمها رسول اللّه ﷺ ومن اتبع هداه على توالي العصور ، يسمح بالقصاص العادل ، ولا يسمح بالانتقام الذي يتجاوز بصاحبه حدود العدل والإنصاف والخلق الكريم
فالمسلم بين خيارين هما خيار العدل ، وخيار الإحسان والصفح ، مهما كانت قوته وقدرته
وتَجاوُزُ العدل إلى الطغيان والظلم ، تجاوزٌ لحدود الإسلام ، ولو كان خصمه من أعدى أعداء الإسلام :
{ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالمِينَ } [الشورى : ٤٠]
{ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة : ٨]

روى ابن هشام في سيرته أنَّ رسول اللّه ﷺ خرج في غزوة أُحد – التي أصاب المسلمين فيها ما أصابهم من القتل والجراح والحزن – يلتمس " عَمّه " حمزة ابن عبد المطلب ، فوجده ببطن الوادي قد بُقِرَ بطنُه عن كبده ، وَمُثِّلَ به ، فَجُدِع أنفُه وأُذناه ، فقال رسول اللّه ﷺ حين رأى ما رأى :
– لولا أن تحزنَ صفية [٤] ويكونَ سُنّةً من بعدي لتركتُه حتى يكونَ في بطون السباع وحواصل الطير ، ولَئِنْ أظهرنيَ [٥] اللّه على قُرَيْش في موطن من المواطن لأُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم!
فلمّا رأى المسلمون حزن رسول اللّه ﷺ وغَيْظَه على من فعل بعمه ما فعل قالوا :
– واللّه لَئن أظفرنا اللّه بهم يوماً من الدهر لَنُمثّلَنّ بهم مُثْلةً لم يُمَثِّلها أحد من العرب .

فأنزل اللّه في ذلك من قول رسول اللّه ﷺ وقول أصحابه : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۞ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } [النحل : ١٢٦– ١٢٧]

أيْ : إن عاقبتم المشركين على ما صنعوه بكم ، فعاقبوهم بالعدل ولا تتجاوزوا ما لقيتم منهم ، ولئن صبرتم عن الانتقام فلم تنتقموا ، فالصبر والعفو خير للصابرين ، وهذا خطاب لجميع المؤمنين ، أما الرسول ﷺ ، وهو الأسوة والقدوة ؛ فقد أُمِرَ بالصبر وترك الانتقام ، ولم يُتْرَك له الخيار : { وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّه } وتوفيقِ اللّهِ وعونِ اللّه

وفي غزوة بدر التي فَرَق اللّه بها بين الحق والباطل :
{ ... وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنفال : ٤١]
في غزوة بدر التي كانت فَيصلاً بين عهدين : عهد الذل وعهد العزّة ، عهد الضعف وعهد القوة :

---

(١) أخت حمزة وعمّة الرسول .

(٢) نصراني .

{ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [آل عمران : ١٢٣]
{ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [الأنفال : ٢٦]

في غزوة بدر كان في جملة أسرى المشركين كبيرٌ من كبرائهم : سُهَيْلُ بن عمرو ، وكان سهيلُ بن عمرو خطيباً مبيناً ، وكان لسانه شدّيد الوطأة على المسلمين

فلما رآه عمر بن الخطاب ﷺ عنه فرح لأسره ، وانبعث في نفسه خاطر عجيب ينتقم به منه ، ويحمي به المسلمين من شرّه – إن عاش – للمستقبل ، فقال لرسول اللّه ﷺ :

– يا رسول اللّه! دعني أنزع ثَنِيّتي [٦] سهيل بن عمرو ، ويَدْلَعُ لسانه [٧] ، فلا يقوم عليك خطيباً في مَوْطِن أبداً ؛ فقال رسول اللّه ﷺ :

– « لا أُمَثِّل به ، فَيُمَثِّلَ اللَّهُ بي وإن كنتُ نَبيّا »

ما الذي حمى سهيل بن عمرو من نَزْع ثنيّتيه ، وأن يُمَثَّلَ به هذا التمثيل الأليم ، وهو أسير ذليل لا حَوْلَ له ولا طَوْل ؟

ما قَدَّمَتْه يَداه للمسلمين في مكة ؟! ولم تُقَدِّمْ يداه للمسلمين في مكة إلا الشرّ

قومُه ، وسلاحُ قومه ، واستكبارُهم وجبروتهم .. ؟!

لقد انهزم قومه شرّ هزيمة وتحطمت سيوفُهم ورماحُهم في بدر ، وصارتْ أنوفُهم في الرَّغام

ما الذي حمى سهيل بن عمرو ، ولم يعد له من يحميه من المسلمين المنتصرين ؟

لقد حماه إيمانُ المسلمين ، ومبادئُ المسلمين ، وتعاليم دينهم العظيم ، وخُلُقُ رسولهم العظيم ، { وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : ٤] ؛ فلا انتقامَ هنا ، ولا تعذيب ولا تمثيل ، ولكنْ غَلَبَةٌ لروح الهداية في نفوسهم على رغبة الانتقام والإيلام ، وأملٌ في أن يشرق نور الحق في قلوب أعدائهم وخصومهم في يوم من الأيام

قال رسول اللّه ﷺ لعمر معبراً عن هذا الأمل – كما رُوِيَ في بعض السِّيَر :

– « إنّه – أي : سهيل بن عمرو – عَسَى أن يقومَ مقاماً لا تَذُمُّه » وقد كان ، بعد أن هداه اللّه للإيمان

أمّا الموقف التاريخي الخالد العظيم الذي يُجلّي الباطلَ والكذبَ الفاضح في اتّهام الإسلام بأنّه دين الانتقام .. فذلك هو موقف رسول اللّه ﷺ عند فتح مكة

لقد دخل رسول اللّه ﷺ مكة بجيش كبير لا قِبَلَ للمشركين بمقاومته ، واجتمعت قريش عند الكعبة مستسلمة عاجزة ، تنتظر حكم رسول اللّه ﷺ فيها ، وهي التي كذبته وآذته ونكلّت بالمستضعفين من أصحابه ، وناوأته وحاربته أكثر من عشرين سنة ، وقتلت من قتلت من أصحابه وأحبابه وذوي قرباه

وقفت تنتظر مستسلمة عاجزة حكم الرسول ، وهي تستحضر ما أصابه ، وأصاب المؤمنين معه ، على أيديها من المصائب والأهوال

وقام رسول اللّه ﷺ على باب الكعبة فخطب خطبته الخالدة :

---

(١) الثَّنِيَّةُ : إحدى الأسنان الأربع التي في مقدِّم الفم ، ثنتان من فوق وثنتان من تحت .

(٢) دَلَعَ اللسانُ : خرج من الفم ، وكان سهيل بن عمرو مشقوق الشفة .

– « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَه »

إلى أن قال :

– « يا معشر قريش ، إنَّ اللَّه قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية وتَعَظُّمَها بالآباء

الناس من آدم وآدمُ من تُراب »

ثم تلا هذه الآية :

– { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... }

[الحجرات : ١٣]

ثم قال :

– « يا معشر قريش ، ما تُرَوْنَ أنّي فاعل فيكم ؟ »

قالوا :

– خَيْراً ، أخ كريم وابن أخ كريم

قال :

– « اذهبوا فأنتم الطلقاء »

وهكذا يَتَّضِح لكل منصف عَبْرَ العصور أنّ الإسلام لا يعرف الانتقامَ الشخصيّ ، ولا يُقــرُّ الانتقــام الشخــصيّ ، وأنّ المسلمين المخلصين الواعين لدينهم ، المتّبعين لرسولهم ، لا يجوز لهم أن يتحركوا بدوافع الحقد والانتقام ، ولكن يجــب أن يتحركوا بدوافع الإيمان والهداية والواجب ، والحرص على خير البشر جميعاً في الدنيا والآخرة

روى البخاريّ ومسلم في صحيحيهما عن المقداد بن الأسود ﷺ قال :

– « قلت لرسول ﷺ :

أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلاً مِنَ الْكُفَّارِ فَاقْتَتَلْنَا ، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا ثُمَّ لاَذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ فَقَالَ :

– أَسْلَمْتُ لِلَّه

أَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

لاَ تَقْتُلْهُ

فَقُلْتُ :

– يَا رَسُولَ اللَّهِ : قَطَعَ إِحْدَى يَدِيَّ ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا ؟

فَقَالَ :

لاَ تَقْتُلْهُ ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ (٨) ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِه قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَال (٩) »

فهل بعد ذلك – أيها الإخوة – ما هو أدلّ على رفض الإسلام لروح الانتقام الشخــصيّ علــى حــساب الحــق والواجب ؟

(١) أيْ معصوم الدم محكوم بإسلامه .

(٢) أيْ مباح الدم بالقصاص .

وبعد ، فالإسلام يعرف القصاص العادل من أجل الحياة كما قدمنا { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة : ١٧٩]

ولكنه لا يعرف الانتقام الظالم ، لا الأعمى ولا المبصر ، ولا يمتُّ إليه هذا الانتقام بسبب من الأسباب

- للكلام صلة -